هيكلة المجتمع الجزائري المعاصر بين النزعتين الحضرية و الريفية

د/ عبد السلام فيلالي
قسم العلوم السياسية
جامعة باجي مختار-عنابة

ملخص

نسعى من خلال هذه الدراسة تبيان دور النزعتين الحضرية و الريفية في تأكيد خيارات (سياسية و أيديولوجية) حاسمة في مسار تطور المجتمع الجزائري المعاصر، عبر تناول عناصر التداخل بين الفاعلين الأساسيين كما تهيأت مع مواقف و محطات تاريخية محددة و من ثم الخروج بتفسير لعمل هاتين النزعتين و أدائية استخدامها في سبيل تثبيت هيمنة و توجه سياسي و طموحات فردية.

Résumé

Nous voulons A travers cette étude indiquer le rôle des tendances urbaines et rurales dans les choix (politiques et idéologiques) décisifs dans le cours de l'évolution de la société Algérienne contemporaine, par l'analyse des éléments de chevauchements entre les principaux acteurs, comme l'a démontré les situations historiques spécifiques. Cela tend a donné une interprétation au travail de ces Tendances, pour le projet de domination et l'imposition politique et les ambitions personnelles.

تمهيد

هناك من النقاشات ما يظل مستمرا و محتدما، لأنه مرتبط بإشكالات تتعلق بأدوار فاعلين أساسيين راهنين.أدوار لها تأثير حاسم على مسار المجتمع و مصالح فئات اجتماعية معينة.و نحن إذ نثير موضوع العلاقة و التجاذب بين النزعتين الريفية و الحضرية في مسار تطور و هيكلة المجتمع الجزائري – بما هو نتاج تعالقات معقدة اعتملت بوضوح أثناء الحرب التحريرية- فلكي نميط اللثام عن قضايا اجتماعية هي من صميم المعالجة السوسيولوجية، نظرا لما لها من بعد أدائي وتوجيهي في النسق القيمي العام للمجتمع، وأيضا لاستمرار تأثيرها في الشأن الجاري.

1- المجتمع الجزائري:الخصائص و التطور

تنبغي الإشارة كمَعلمة أولية لطبيعة المجتمع الجزائري، أنه ظل ذا طابع ريفي، حيث أن تسعين في المائة من السكان (قبل 1830) كانوا ينتظمون في قبائل و يعيشون في الريف، بالرغم من "وجود دائم لتجمعات سكنية مدنية"[1].إن هذه السمة المحددة لها دلالتها من حيث بنية التفاعلات الاجتماعية و المواقف و الأدوار و طرائق انتظام العلاقات الاجتماعية ضمن النظام الاجتماعي العام.

إن هذا التناول لموضوعنا على هذا الغرض، يفتح المجال أمام قراءة لتطور المجتمع تتعلق بعملية إعادة بناء الطبقات/الفئات الاجتماعية، من حيث ما انتهت إليه الصيرورة الدرامية للتغير الاجتماعي التي دشنها المستعمر الفرنسي مع تهديم البنى الاجتماعية القائمة على النظام القبلي و انتشار نمط الإنتاج الرأسمالي، الذي يعتمد أساسا على المدينة و من ثم ظهور مهن حرة.و سوف تكون عملية إعادة بناء الفئات الاجتماعية ذات تأثير حتى يومنا هذا، و هذه العملية تستند رأسا إلى العامل الاقتصادي بما هو "جوهر هذه التغيرات التي شهدتها الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية"[2].

كذلك فإن تبصر الوضعية الاقتصادية في الجزائر عشية إعلان اندلاع ثورة التحرير في 01 نوفمبر 1954، تكشف عن مجتمعين متباينين.فمن جهة نجد مجتمع المعمرين و من جهة ثانية المجتمع الجزائري.و سوف يظهر البون بينهما شاسع من جميع النواحي، سواء سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا، بسبب أولي يتمثل في سيطرة السلطات الاستعمارية على الأراضي الخصبة، و التي معها استحال عدد معتبر من صغار الملاك الجزائريين إلى مجرد أجراء براتب زهيد، و انضمامهم بالتالي إلى جيش الفلاحين الفقراء.و من كل هذا جعلت صفوف العالم الريفي تتوسع بحيث بلغت نسبتها 98 بالمائة من المجموع العام للسكان.و يوعز السبب الأساس في هذا إلى أن "السكان الجزائريين بقوا بنسبة 78 بالمائة يتعاملون مع الأرض كمصدر أساسي لرزقهم"[3].

- الحراك الرأسمالي و إعادة بناء الطبقات الاجتماعية

إن تتبع مسار نشوء و تطور الفئات الاجتماعية في الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية على وجه التحديد، يمر عبر ما أفرده الحراك الاقتصادي الرأسمالي و تقوقع الغالبية العظمى من الجزائريين على الإعتياش من الفلاحة التقليدية الضعيفة المردود.و يتحدد ذلك عبر انتخاب فئتين اجتماعيتين تتحركان جنب إلى جنب قبالة الطرف الآخر من المعمرين.إن الفئة الأولى مرتبطة بالعالم الريفي و نظمه الإنتاجية و الاجتماعية، فتعبر عن نفسها خارج اللغة المعاصرة عن طريق الرفض أو العنف، و أما الفئة الثانية و هي الفئة الحضرية، فهي ذات أصول تاريخية و متأثرة بالاحتكاك مع فرنسا[4].

جدول رقم (1) يبين توزيع الفئات الاجتماعية سنة 1954

الجماعات الاجتماعية	عدد العائلات	عدد الأفراد	النسبة المئوية بالنسبة للسكان	الدخول
مالكي و مستغلي الأراضي	4000	21000	0,25	434000
إطارات إدارية تقنية	25000	133000	1,5	226000
أجراء في التجارة و الصناعة و الإدارة	225000	1193000	14,2	75700
عمال الفلاحة وبطالين .خادمات و تجار صغار	310000	1653000	19,6	34600
مستغلي أراضي يعملون على مساحات، أجراء موسميين مهاجرين.	996000	5400000	64,2	24500

المصدر: نادي جان مولان 1960[5].

إنه من خلال الجدول رقم (1) الذي يبرز وضعية الفئات الاجتماعية سنة 1954، نرى أن نسبة فئة مالكي و مستغلي الأراضي، من البرجوازية بالنسبة للسكان تقدر بـ **0,25** بالمائة، أما فئة الإطارات الإدارية و التقنية فنسبتها من مجموع السكان هي 1.5 بالمائة، و أما فئة الأجراء الذين يشتغلون في التجارة و الصناعة و الإدارة، فنجد أن نسبتها هي 14.2 بالمائة، و أما فئة الفلاحين و البطالين و الخادمات و التجار الصغار فنسبتها هي 19.6 بالمائة.أما فئة مستغلي الأراضي و الأجراء الموسميين المهاجرين فإن نسبتها هي **64,2** بالمائة.و من حيث المداخيل فإن هذه الفئات تجد نفسها محظية أو غير محظية انطلاقا من طبيعة النشاط الاقتصادي.و عليه يتبدى الفارق أكثر فأكثر كلما اختلف الإنتاج المؤدى.أما عن فئة الفلاحين الريفية التي هي أكبر فئة من ناحية التعداد، فهي تمثل "الفئة الجماهيرية الأكثر استغلالا، لأن وضعيتها سيئة للغاية و التي تجسد قوة البلاد"[6].

إن هذا الانغلاق- و الكلام عن العالم الريفي- على مستوى النشاط الإنتاجي قد صاحبه انغلاق على مستوى فضاء القرية، بحيث تحول إلى عزلة.وصار توعي الوجود الاجتماعي مرتبطا فقط بدائرة الانتماء إلى عائلة و ليس إلى الوطن، و هذا ما يؤدي إلى الانغلاق أيضا داخل منظومة من العادات و التقاليد الغائصة في الأسطورة و الخرافة.إن

1 هوية فئة الفلاحين هي من هوية غالبية أعضاء فئة معدومة الحقوق مستغرقة في البحث عن البقاء وفقط، ينهشها الجوع و المرض و الحصار الضريبي.

جدول رقم(2) يوضح وضعية المجتمع الريفي الجزائري سنة 1954[7]

	العدد سنة 1954
ملاك	494500
Métayers/مزارعون	60000
خماسون-أصحاب ضيعات	-
عمال أجراء	357500
عمال موسميون	77100
عمال دائمون	108800
يد عاملة عائلية	1438300

و إذا أردنا التدقيق في هذه الوضعية تبعا لما تفرده إحصاءات الجدول رقم (2)، نجد أن جل أفراد هذه الفئة هم يد عاملة عائلية حيث أن عددهم يقدر بـ 1438300 فرد.ثم يليهم الملاك أصحاب الضيعات الصغيرة و الذين يقدر عددهم بـ 494500 فرد،ثم يأتي العمال الأجراء الذين يقدر عددهم بـ 357500 فرد، ثم العمال الدائمين الذين يبلغ عددهم 108800 فرد، ثم العمال الموسميين الذين يقدر عددهم بـ 77100 فرد ، و أخيرا المزارعون الذين يقدر عددهم بـ 60000 فرد.و داخل العالم الريفي ذي الظروف الاجتماعية المتردية توجد فئة من ملاك الأراضي الكبار، و الذين يمثلون ما يمكن تسميتها الأرستقراطية العقارية و البرجوازية الريفية و التي قدر عدد أفرادها سنة 1954 بنحو 3496 مالكا تتعدى ملكية الواحد منهم مائة هكتار، و هم لا يشكلون سوى 1.34 بالمائة من مجموع الملاك ما نسبته 23 بالمائة من كامل الأراضي لدى الفلاحين الجزائريين[8].

و أما عن فئة الحضر أو البلْدية، المرتبطة بدائرة نشاط الانتاج الرأسمالي و المتميزة عموما بآدابها و طريقة عيشها، و التي هي "قريبة الشبه من الطبقة الحاكمة و البرجوازية من ملاك الأراضي"[9]، و التي يمكن اعتبارها كعابرة لعمليات الإقصاء الذي مارسته السلطات الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر.فإن موضعة هذه الفئة

الاجتماعية بأقسامها ضمن سياقها التاريخي، يقوم على الوظيفة بما هي جزء من حركية اجتماعية عامة تتسم بسيادة الرأسمالية في بداية القرن العشرين و انفتاحها على فئة محدودة من الجزائريين تعلمت في المدارس الفرنسية.و هذا ما يشير إلى أن وجودها مرتبط بصعود اجتماعي.و قد قدر ر.أجيرون **R.Ageron** نسبة هذه الفئة – التي يصنفها كطبقة وسطى – ما بين 10 و 11 بالمائة من عدد السكان بالنظر إلى عدد المسجلين في القوائم الانتخابية ما بين سنوات 1890 و 1891، ثم تهبط هذه النسبة إلى 5.7 بالمائة سنة 1914. و يعتبر أجيرون أن نسبتها في سنة 1954 من أضعف النسب في دول العالم الثالث[10].

و يمكن فرز ثلاث طبقات فرعية لها هي:

– الطبقة البرجوازية التي تكونت تكوينا فرنسيا و الممارسة لوظائف أو مهن حرة كالمحاماة و الطب و الصيدلة، أو من ضباط و مثقفين و بعض كبار التجار و الصناعيين و إطارات عليا.و هي في تعدادها لا تتجاوز 5000 شخص[11].و من الجدول رقم (3) نجد أن تعداد الجيش و الشرطة هو 5626 شخص، في حين أن تعداد أرباب العمل هو 1552، و أما تعداد أرباب الصيد البحري فهو 337، و تعداد أصحاب المهن الحرة هو 2154.و إذا ما قارنا العدد الكلي بالنسبة لمجمل السكان نجد أن النسبة صفرية تقريبا.

– الطبقة الوسطى، و هي التي ينتمي إليها الحرفيون و العاملون الصغار بالتجارة و الصناعة و المتوسطون منهم و كذلك الموظفون و التقنيون و الإطارات المتوسطة و عناصر من الطبقة العاملة و العمال المهنيين[12].و كما هو موضح في الجدول رقم (3) فإن تعداد هذه الطبقة هو الأكبر، و متوسط التجار و الحرفيين و أرباب سفن الصيد و أصحاب المهن الحرة و الموظفين و خدم المنازل ضمنها تشكل 30.54 بالمائة من سكان المدن المسلمين[13].

– و كذلك تأتي الطبقة البروليتارية الحضرية، و التي تعيش على هامش المدن حيث تتكدس في أكواخ و مساكن قصديرية يزيدها النزوح الريفي اتساعا[14].هذه المدن التي عرفت تزايدا سكانيا مستمرا، فبين سنوات 1936 و 1948 تزايد

من 348000 نسمة إلى 474000 في الجزائر و من 205000 إلى 275000 في وهران[15].و حسب يوسف جباري، فإن عددها يقدر بـ 257000 عامل نشط، و يضاف لها 13300 بطال وهي تشكل 67 بالمائة من مجموع السكان النشطين غير الفلاحين بمن فيهم الأوروبيين[16].و يعود سبب اتساع هذه الطبقة إلى الحركية الاقتصادية المتميزة بالانتقال إلى حقل المصنع، و بالعمل في شبكات الطرق و سكة الحديد[17].

جدول رقم(3)* الفئات الاجتماعية الحضرية سنة 1954[18].

الفئات	الرجال	النساء	المجموع
أرباب العمل	1532	20	1552
حرفيون	27474	2576	30050
أرباب الصيد البحري	331	6	337
أصحاب المهن الحرة	2056	98	2154
موظفون	1822	920	19148
خدم منازل	17308	24710	42018
جيش–شرطة	5583	43	5626
تجار	78069	932	79001
المجموع	150574	29305	179879

إن عملية التفيئة للتشكيلات الاجتماعية، كما يفردها الوجود الاجتماعي، لا تتاح إلا بإبراز خاصة لفئة قبالة الفئات الاجتماعية.و قد عرضنا لها لأهميتها في فهم عمل التراتبية الاجتماعية و التفضيلات القيمية و دورها بالتالي في تأهيل القرارات و من ثم التأثير.و نحن نشير هنا إلى محاولة كل فئة من الفئات الاجتماعية بحسب

تنضدها و تآلفها ضمن سياقات تاريخيةّ، سياسية في محاولة تأكيد خيار ما مهما كانت خاصيته.

و قد بدأ يتمظهر بحدة في تقابل الخيارات و التوجهات و الشرعيات، مع ما يعرف بالصراع بين المصاليين و المركزيين.صراع نجم مع تغير بنية تكوين الإطارات و صعود نخبة من المتعلمين ذوي أصول اجتماعية متوسطة، يظهر عليها الاعتدال و الوسطية في التعامل و يقدمون خطابا جديدا يستبعد المغامرة و الاندفاع.إنها سمات أهل الحضر في مقابل سمات أهل الريف العفوية التي لا تقيم اعتبارا لعواقب الأمور.و هي "تعتمد تكتيك يقوم على وضع حد لانقسام البرجوازية الصغيرة و التحالف مع الرجوازية قبالة العامة"[19].

و سوف تعطى تفسيرات مماثلة لما وقع من خلاف و معارضة حول مؤتمر الصومام 1956.ثم ما سيتبع سنة 1957 في أول مؤتمر للمجلس الوطني للثورة الجزائرية، عندما تم إبعاد عبان رمضان و المركزيين من القيادة.و لكن النزعة الريفية ستتخذ لها طابع المواجهة الحدية مع النزعة الحضرية عندما تتلازم مع الإيديولوجية الاشتراكية، بما يعرف ب"الثورة بواسطة الفلاحين".

2- تلازم الاشتراكية و النزعة الفلاحية:"الثورة بواسطة الفلاحين"

و نبدأ في إثارة هذا التلازم من حيث أنه تم ربط تبني الاشتراكية بالفاعلين الأساسيين ذوي الأصول الريفية و هذا في بداية ولادة الدولة الجزائرية المستقلة. و في هذا الربط إحالة إلى ضرورة فهم المسار العام للحركة الوطنية الجزائرية و للثورة الجزائرية.فإنه ليس يمكن رد المذهبية الموجِهة لميثاق طرابلس 1962، المتبناة للنهج الاشتراكي فقط إلى الأصول الاجتماعية للفاعلين المتبنين لها.إن هذا الرد سيبقى مجرد تعميم غير دقيق على الرغم من أن غالبيتهم ريفيين بالأساس.نقول بهذا الطرح بالنظر إلى أن أدبيات جماعة أول نوفمبر، لا تحوي أي إشارة إلى الاشتراكية.فبالنظر إلى مستواهم التعليمي و الثقافي، تبدو إيديولوجيتهم مرتبطة بالتنشئة السياسية المتلقاة داخل حزب الشعب الجزائري-حركة انتصار الحريات الديمقراطية و التي جاءت وطنية-شعبوية.ثم أن لا أحدا من هؤلاء الفاعلين قد أبان عن توجهاته

الاشتراكية بشكل جلي قبل ذلك، و كما حدث فيما بعد مع أحمد بن بلة و محمد بوضياف و محمد خيضر كأساس إيديولوجي.إنه تبني حديث، و لم تذكر المصادر متى تم هذا الأمر.و حينما نعلم أن الشخصيات الثلاث المذكورة كانت موجودة منذ أكتوبر 1956 في السجن، فسوف يظهر هذا التبني و كأنه تم خلال هذه فترة السجن.و هذا على خلاف جماعة هيئة الأركان العامة التي ظهر و أنها استوعبت المذهب الاشتراكي في تأثرها بطروحات فرانز فانون و الثورة الكوبية و تيتو في يوغوسلافيا.

إن البحث في مصدر هذا التأثير مرتبط بالحزب الشيوعي الفرنسي و الحركة النقابية في فرنسا، فرواد التيار الوطني الراديكالي، كحاج علي عبد القادر و مصالي الحاج، احتكوا بالأفكار الاشتراكية، عبير ممارسة النشاط النقابي.و لكن مصالي الحاج بتجسيده للنضال السياسي للتيار الوطني الراديكالي قد جعل يبتعد عن الأفكار الاشتراكية في بعدها العلمي، لكي يستقر عند برنامج سياسي يقوم على الوطنية–الشعبوية، أي الارتباط بالقيم الإسلامية و الاجتماعية التي تتحدد في الشخصية الجزائرية.و هو نفس الاستقرار الذي دأبت عليه جبهة التحرير الوطني منذ تأسيسها.فلسنا نجد أي إشارة للإيديولوجية الاشتراكية في بيان أول نوفمبر، و ذهبت أرضية الصومام أبعد عندما أعلنت رفضها الصريح للأفكار الاشتراكية (نسبيا).و ظل الأمر على هذا المنوال إلى غاية صياغة نظام أساسي لجبهة التحرير الوطني في اجتماع لمجلس الوطني الثورة الجزائرية المنعقد في طرابلس في الفترة الممتدة من 16 ديسمبر 1959 إلى 18 جانفي 1960.بتأثير من عمر أوزقان و فرانز فانون، و الذي يخلص إلى أن تكون الدولة الجزائرية ديمقراطية واجتماعية، بحيث تكون طبقة الفلاحين هي القوة المحركة للثورة.

و الأمر الجوهري في تبني هذا الاجتماع للإيديولوجية الاشتراكية مرتبط بصعود مجموعة قوية و متضامنة حول شخص هواري بومدين الذي عين على رأس هيئة الأركان العامة.و لذلك بوسعنا القول أن هذا التبني إنما نجح في الدفع بهذه

الأيديولوجية لكي تكون الموجه الفاعل للثورة الجزائرية، مرتبط بنفوذ هذه المجموعة التي طورت عقيدتها هذه داخل جيش الحدود.

و الوازع في هذا يعود إلى أن هذه المجموعة و على رأسها هواري بومدين متأثرة بأفكار فرانز فانون (1925-1961)، بما "هو المنظر الرسمي و باعث المفاهيم الثورية"[20]، و بالنهج الثوري العملي لتشي غيفارا، كما تؤكد عديد المصادر[21].لقد كانت صور الزعماء الثوريين (كاسترو، تشي غيفارا) تغطي جدران المكاتب في غارديماو مقر جيش الحدود، و كانت المرجعية لهذه المجموعة تتأسس على مقاربة عالم-ثالثية في توجيه الصراع ضد فرنسا باعتبارها قوة استعمارية-امبريالية على غرار تجارب دول مثل:يوغوسلافيا الصين فيتنام و كوبا.و بالتالي، أعتبار الثورة الجزائرية كثورة فلاحية[22].فلم يكن هواري بومدين يخفي افتخاره بأصوله الريفية الفقيرة، كما أنه كان يؤكد على دور الريف و القرى الريفية الشعبية خاصة الفلاحين الصغار في ثورة التحرير و الحركة الوطنية ككل[23].

و عليه يمكن التحديد بالقول:إن المشروع السياسي لهيئة الأركان يتمحور حول مفهوم الثورة الشعبية، بمحدديها المركزيين أي الشعبوية و الاشتراكية.حيث تتجلى المقاربة بشكل واضح و صريح على اعتبار أن الأرض للفلاح و من ثم النهاية الحتمية لنظام الخماسة، و أن المصنع للعامل، و أن الصحة للجميع، و أن المدرسة لجميع الأطفال، و أن السلطة هي ملك الشعب، و أن الثورة من الشعب و إلى الشعب، فالحكومات تزول و أما الشعب يبقى.أي و باختصار أن الفلاحين هم القوة الاجتماعية الأساسية للثورة، و أن الاستقلال مجرد مرحلة و أن الثورة الشعبية هي الهدف.فكل شيء يقوم في نهاية المطاف وفق هذا المشروع على معاداة الليبرالية و الماركسية-الحضرية و العيش في خدمة الجماهير و التوزيع العادل للإنتاج و الثروة.

3-بين الريف و المدينة:من يؤثر

إن تحليل فرانز فانون لسيرورة الصراع من منظور ماركسي تكون طبقة الفلاحين الطرف الأول في معادلته، يفتح المجال أمام التأويل.فإلى أي حد تجسد فعلا هذه الطبقة نقطة الارتكاز في محاربة الاستعمار.هل أن مقياس الأكثر استغلال يتيح لها أهلية القوة الطليعية بالموزاة مع قوى أخرى:الحركة العمالية النخب الحضرية.و إلى أي حد يمكن اعتبار أنها معنية أكثر بالتحرر.ثم ما هي درجة الوعي المستدمج لديها التي تعطيها أهلية القيادة.بحيث نقول أن تحليل فانون انسحاب تطابقي بين النزعة الشعبوية-الوطنية بقاعدتها الفلاحية-الريفية، أكثر منه اعتناق الفلاحين لهذه الرؤية، و بالتالي نحصل على توظيف نخبوي لفئة معينة من المجتمع لكي تكون الأداة المثلى في الصراع، من كون أنها: تعطي أولوية التحليل للعلاقات السياسية و تهمل الظواهر الاقتصادية و الاجتماعية، و هي لذلك عامة لا تولي عناية لخصوصية مكونات التيار الوطني الجزائري و تعقد مساره[24].و نستطيع الاستدلال في هذا النقد بدور المدن في عملية التحرر:مظاهرات 11 ديسمبر 1960، معركة الجزائر سنة 1957.لذا وجب إعادة صياغة ما سبق في السؤال التالي:هل الثورة الجزائرية هي ثورة فلاحية-ريفية؟فعلا أن معظم إطارات جبهة التحرير الوطني منحدرة من الريف، غير أنه لم تكن لديهم أية علاقة مع خدمة الأرض[25].

و عليه نطرح التساؤل التالي:ما سر تأثر و تبني هيئة الأركان العامة لهذه الأفكار.إن وضع إجابة دقيقة لا تبتعد عن طرحها عن التجاذبات التي تحكم مختلف القوى الاجتماعية التي تتألف منها الثورة الجزائرية و التي تجد جذورها في الحركة الوطنية.لقد كانت مجموعة هيئة الأركان العامة تعرف نفسها ضمن البحث عن مشروعية سياسية قبالة خصومها (المركزيين، الباءات الثلاث، الشيوعية البروليتارية) لأجل تأكيد دورها في عملية التحرير الوطني.و قد وجدت في فكرة الصراع بواسطة الفلاحين الإيديولوجية الأكثر تعبيرا عن طموحاتها.جعلتها فيما بعد الوسيلة و الغاية في وضع مشروع سياسي يقصي بها هؤلاء الخصوم.

و سوف نذهب أبعد في هذا التحليل فنقول: ليس يهمنا الآن الإجابة عن سبب هذا التبني، و إنما ما يهمنا هو تفسير هذا التبني.و سوف نحاول هذا التفسير من خلال ربطه بطبيعة الثورة الجزائرية في الأساس.فيذهب بعض الدارسين إلى اعتبار الثورة الجزائرية إلى أنها كانت "فلاحية بالأساس"[26]، لأن الفلاحين كانوا "عناصر موجهة للثورة"[27].و هذا يعني أن

انضمام الفلاحين لصفوف الثورة كان كبيرا.و يوعز انضمام "ذوي الطباع الخشنة" بتعبير محمد حربي إلى عوامل تستدعي حصرها بالرجوع إلى "أزمة المجتمع الريفي"[28] التي كشفت عن تدهور اقتصادي و اجتماعي كبير بحيث يمكن القول أن درجة الرفض و اليأس كانت دافعا كبيرا، ثم إلى أن جذور فكرة الثورة بواسطة الأرياف تحتل مكانة رئيسية في برنامج نجم شمال إفريقيا و من بعده حزب الشعب الجزائري وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، فيؤكد مصطفى الأشرف على هذه المسألة بتركيزه على "العمل الشاق الطويل الذي قام به الفلاحون من أجل استرداد الأراضي المغتصبة، وما بذلوه من جهود، وما أظهروه من صبر وشجاعة و تضامن في حركات التمرد العديدة"[29].فقضية المجتمع الريفي "الذي كان في بداية الأمر مدفوعة بغريزة المحافظة على البقاء، تحركَ حركة منسجمة و متزنة، رغم فقره وجهله"، و بذلك كانت الشروط الملائمة للكفاح المسلح.و هو الأمر الذي يعتبره ليازو **liazu** كانتقام من الشرفاء[30]، و يشبهه بانتصار على طريقة بيروس[31].و يعلل ليازو هذا الأمر بأن "القوى الريفية كانت أداة قوية توجب أخذها بعين الاعتبار فعبر مسار طويل للمعاناة تشكلت الطبقة السياسية وقواعده موجودة بشكل أوسع في الأرياف أكثر من بعض المدن كما تؤكد الحركة الوطنية بالخصوص على استقلالية السياسي عن البنى الاجتماعية "[32].فيظهر عامل التعبئة السياسية للفلاحين من قبل القادة، كعامل مهم في الانضمام الواسع من حيث أن –كما يشرح فرانز فانون– هؤلاء المنبوذين . يقصد النشطاء . يألفون مخاطبة الفلاحين و يكتشفون الجماهير الريفية و يرسخون الاعتقاد فيهم بأن تحررهم لا يتم إلا بالعنف، و بأن القضية هي قضية استرداد الأراضي من الأجانب، و هي قضية كفاح و طني، و قضية ثورة

مسلحة[33].كما أنهم "يتميزون من كونهم خارج المجتمع و بدون إمكانية للاندماج، سواء في المجتمع التقليدي أو في العالم الكولونيالي"[34].

إن ربط قوام الثورة بطبقة الفلاحين بهذه الطريقة و بالرجوع إلى معطيات الحرب،فيه بعض المبالغة، فنحن أمام خطاب تمجيدي مبني على نظرة مفادها أن الفلاحين فيهم هذه الطهرية القائمة على وعي وليد الشعور بالخطر الذي يهدد مصير الأمة، من خلال انتزاع الأراضي.فكأن فقط سكان الريف هم المتضرر الوحيد من الاستعمار، و أن السلب و التهميش مسهم هم وحدهم فقط.و سوف تعني هذه النظرة الاقتصارية إلى غمط حق تاريخي للمدينة، عندما احتضنت نشاط الحركة الوطنية في كل أبعاده الثقافية و الاجتماعية و السياسية.

فحسب جيلبير مينييه:"لقد كان الشعور الوطني أكثر تقدما في المدن"[35]. و يقول مصطفى الأشرف و هو أحد المشاركين في تحرير وثيقة طرابلس أن "فكرة الثورة قد نبعت من المدن"[36].و هي نفس القناعة بالنسبة لزميله محمد حربي، عندما يعتبر أن الحضر لعبوا دورا مهما في حرب التحرير[37].و أنهم يشكلون، حسب عبد الرزاق بوحارة "الدعامة الاجتماعية للوعي الوطني"[38].و عليه نقول بكل هناء أن مشاركة الحضر أمر لا غبار عليه في الثورة، و لو أن درجة المشاركة متراوحة من مدينة إلى مدينة، و لكنه على كل حال أمر مثبت.و لكن الذي يمكن تسجيله هو أن المدينة كما كتب أحد قادة الثورة و هو الرائد عزالدين:"لم تقدم إلا عددا قليلا من المسئولين، فإن أبناء هذه المدن قد أسندت لهم مهام إدارية وتسييرية، إذ أن الأرياف استحوذت على كل شيء: السلطة سياسية، الجيش، الأمن، الحكومة"[39].و تعليل هذا الأمر يدفع إلى اعتبارات تخص طبيعة التنظيم الذي ميز ثورة الجزائر.إذ أن طريقة استقطاب العناصر القيادية كانت تتم وفق أصول العلاقات الشخصية و النفوذ، و قد نضيف اعتبارا لا نراه مركزيا يتعلق بما تعرضت له الفئات الحضرية من تصفية في أثناء حرب المدن و لجوئها إلى الأرياف و هو ما كان يعني خضوعها إلى ذهنية و إشراف المستضيف.و هناك اعتبار تحدد كشرعية تاريخية من حيث أن تأسيس جبهة التحرير الوطني "أقلب موازين حقل القوى السياسية، فالبرجوازية الحضرية و الحركة العمالية

قد فاتها الموعد"[40].ثم أن هناك "ضعف الطبقات الحضرية و هشاشة هيمنتهم السياسية على الأرياف، فلم تكن البرجوازية أو الطبقة العاملة الفاعلين الأساسيين في التاريخ القريب".[41]

4-تبني النزعاتية لتدعيم الهيمنة

إذن، يتحدد دور الريفيين في حرب التحريرية الوطنية في كونهم كانوا في مواقع قيادية موجهة.و ليس الأمر كذلك بشكل كلي، فرئاسة الحكومة آلت إلى من اعتبروا معتدلين أو برجوازيين.غير أن الأمور تقاس بنتائجها و هذا هو بيت القصيد، فمع جبهة التحرير الوطني نسجل "بشكل نسبي من جهة ثقل الريف ونسقه القيمي، حيث تهيمن روابط اجتماعية تقليدية و من جهة الروح العسكرية التي بها تزدهر الأخوة العسكرية"[42].و مرد هذا الثقل هو الجانب العسكري الذي تأكد فيه حضور الريف، و يفسر عبد الرزاق بوحارة هذا، من حيث أن "الجيش هو الأداة المثلى لترقي النخب القروية الريفية الجديدة المنحدرة من أوساط بسيطة.فمجال المعارك، في المناطق الريفية و الجهات الوعرة المسالك، و كذلك المشاركة الواسعة للفلاحين المعدمين المحشورين على أطراف المدن، ساهمت هذه العوامل في ولادة قيادة منحدرة في الغالب من الطبقات غير الحضرية"[43].و هو ما جعل المعارضون يركزون على نقد القيم الريفية المهيمنة، و التي صارت فيما بعد بمثابة خارطة طريق سياسية تفرز انتقاء النخب المسيطرة.و هذا التسليب منبعث من التفسير التالي:إن الفئات الريفية دخلت الحركة الوطنية و بالتالي الثورة التحريرية "و هي بمستوى سياسي جد ضعيف وكان الأمر مع القادة"[44].و المقصود هنا بشكل غير مباشر طبيعة هذا المستوى القائم على "ميراث ثقافي غير متحمس للعصرنة و الديمقراطية"[45].

و هو ما يعيدنا إلى التوصيف الخلدوني عن علاقة البدو والحضر، حين يعتبر أن البادية أصل العمران و الأمصار مدد لهما التي تنتهي ببلوغ الملك، فيؤكد على أن "البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه و أن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم. و لا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليهما لأن الضروري أصل والكمالي

فرع ناشىء عنه. فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذ ا كان الضروري حاصلاً. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة. ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها. ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قياد المدينة. وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم. والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته. ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر.و ذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فتفهمه. ثم أن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه: فرب حي أعظم من حي وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمراناً من مدينة. فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم"[46].

لقد نكون انتزعنا هذه الفقرة من سياقها التاريخي، و لكننا نرى فيها من التطابق مع ما نحن بصدده.حيث تظهر العصبية كعامل حاسم في تفسير الصعود و نسج علاقات السلطة و فيما بعد تحديد موجهات الفعل التي تحكم العلاقة مع من هم "آخرين".فإن "النخبة الريفية طموحة للعب الأدوار الأولى..فهي تريد أن تئول السلطة إليها"[47]، على قاعدة الاستحواذ السياسي لمختلف طبقات المجتمع التي تأسست داخل جبهة التحرير الوطني[48].و هو ما يولد داخل هذا التفسير منطق الذرائعية التي حكمت عمل العصبية في القيادة من حيث أن الفئة الريفية التي "كانت القاعدة الاجتماعية للولايات"[49].لم تكن سوى دعامة متينة و وسيلة "في مسار الجماعات نحو السلطة[50].ذلك أن العناصر القيادية "لم يكن لها علاقة بخدمة الأرض"[51]، و أن "معظم الإطارات الوطنية هم مقتلعون من مواطنهم الأصلية، ومع قطيعتهم مع

محيطهم الأصلي و مع التمرد الاجتماعي الذي قادهم في الغالب ليصيروا "ثوارا محترفين".الحركة تضم عددا قليلا من الفلاحين أو مثقفين بقوا على هامش الفعل السياسي أو انضموا متأخرين.هم في معظمهم رجال أكثر تعليم و أكثر استعلام بالنسبة لجماهير الشعب الجزائري.وكثير منهم تمدرسوا في المدارس الفرنسية و كان بحوزتهم شهادات"[52].و أن ترقيتهم إلى قيادة الدولة–فيما بعد–"مرتبطة بالجهاز البيروقراطي"[53].هذا الجهاز المطور عبر ممارسات القيادة و ثم تبني أيديولوجية.

هذا عن النخبة القيادية المرتبطة بالعنصر الريفي، أما عن العناصر الحضرية الموسومة بالبرجوازية كما عبرت وثيقة طرابلس، فيرجع سبب فشلها في المسك بزمام القيادة، كما يذهب حسين آيت أحمد إلى: "التمسك المستبد بالمواقف "الأرثوذوكسية"، الذي كان شكل للعلاقات التي كانت تربط مختلف شرائح البرجوازية الصغيرة مع الجماهير، حيث كانت لا تعدو أن تكون علاقة استحواذ و مناورة"[54].و هو ما يعني العجز في نسج علاقة مع ذوي الأصول الريفية، عندما لم تستطع مساوقة الممارسة بمشروعها السياسي، على ما يذهب إليه عبد الرزاق بوحارة:"و الذي كان يمكن لو حصل أن الجزائر كانت ستسير بشكل مختلف"[55].

خاتمة

بالرجوع إلى مضامين وثيقة طرابلس، التي أكدت على التبني الصريح للنهج الاشتراكي و الحزب الواحد لبناء الدولة الجزائرية المستقلة.يتبدى لنا ما يلي: لم يكن مصدر هذا التبني يرجع فقط إلى الأصول الاجتماعية، و إنما أيضا إلى الذرائعية المبنية على العصبية على قاعدة (أنا وأخوي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب).فكانت عملية الأدلجة تقوم على قاعدة إزاحة هذا المختلف من المواقع القيادية، بواسطة إنتاج مشروع سياسي بديل.

الهوامش

1- الهواري،عدي.الاستعمار في الجزائر. سياسة التفكيك القتصادي و الاجتماعي.1830-1960. ترجمة جوزيف عبد الله .دار الحداثة.بيروت.الطبعة الاولى.1983.ص 15.

2- Vatin, Jean-Claude. l'Algérie politique. Histoire et société. 2ém édition Presses de la fondation nationale des sciences politiques. Paris..1983, p 386.

3- زوزو، عبد الحميد.محطات في تاريخ الجزائر.دراشات في الحركة الوطنية و الثورة التحريرية (على ضوء وثائق جديدة).دار هومة للطباعة و النشر و التزيع.الجزائر.2004.ص 322

4- Harbi, Mohammed.1954.la guerre commence en Algerie. 3ème edition Complexe éditions.3ème edition.Paris.1998.p 103.

5- Stora, Benjamin.les sources du nationalisme Algérien.parcours ideologiques.origines des acteurs.édition l'harmattan.1989, p 76.

6- Ibid.p 88.

7- Noushi, André. l'Algérie amer.1914-1994. 2ém edition.éditions de la maison des sciences de l'homme..Paris.1995.p 149.

8- زوزو، عبد الحميد.مرجع سابق.ص 324

9- Ageron, Charles-Robert. Genèse de l'Algérie Algérienne.ed.Bouchene.Paris.2005.p .371

10- Ibid.p .373

11- زوزو، عبد الحميد.مرجع سابق.ص 322

12- المرجع السابق.ص 323

13- Djabari, Youcef. la France en Algérie.Bilans et controverses.Volume 3.les limites d'un capitalisme d'état colonial.OPU.Alger.1994.p 673.

14- زوزو، عبد الحميد.مرجع سابق.ص 324

15- Noushi, André.p 127.

16- Djabari, Youcef.Op,Cit p 673.

17- Ageron, Charles-Robert.Cit.p 281.

18- Djabari, Youcef.Op,Cit.p 673.

19- Harbi, Mohamed. aux origines du fln.le populisme révolutionnaire en Algerie.ed Christian Bourgeois.Paris.1975.p 149.

20- Harbi, Mohammed.Meynier,Gilbert.le FLN.documents et histiore.1954-1962.Casbah éditions.Alger.2004.p321.

21- Ibid .P 382.voir aussi Lacoture, Jean.Algerie.la guerre est finie.ed.complexe.Paris.1995.p 94

Bouhara, Abderrezak. Les Viviers de la libération (Essai) - Casbah Éditions, Alger, 2002.p323. Abbas. ferhat.Autopsie d'une guerre. Edition Garnier freres.Paris.1980.p 316.

22- Bouhara, Abderrezak.Op,Cit.p323.

23- الكنز، علي.جابي، عبد الناصر.الجزائر في البحث عن كتلة اجتماعية جديدة.مجلة المستقبل العربي.عدد 18. ماي 1994.يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية.بيروت. ص 25.

24- Harbi,Mohammed.1954.la guerre commence en Algerie.Op,Cit.p 166.167.

25-حربي، محمد.حياة صمود و تحد.1945-1962.ترجمة عبد العزيز بوباكير و علي قساسية.دار القصبة للنشر.الجزائر.2004.ص 313.

26- Meynier, Gilbert.Histoire intérieur du FLN 1954-1962.édition Fayard. Paris. 2002, p 164.

27- Ibid.p. 129.

28- Harbi, Mohamed.une vie debout.mémoire politique.tome 01 .1945-1962.Casbah éditions. Alger.2001 p 276.

29-الأشرف، مصطفى.الجزائر:الأمة و المجتمع.ترجمة حنفي بن عيسى.المؤسسة للكتاب.الجزائر.1983.ص 9.

30- Liazu, Claude les mouvements..In Enjeux urbain au Maghreb. Crises, pouvoir et mouvements sociaux.l'Harmattan.1985.p 139.

31-بيروسPyrrhus ملك إبيرÉpire ، الذي حلم بتوسيع مملكته نحو الغرب(إيطاليا) ونحو الشرق لأجل إعادة إحياء إمبراطورية الأسكندر وإعادة بناء وحدة العالم الإغريقي .حارب أولا بجانب ملك مقدونيا son beau-frère ثم انقلب عليه بمساعدة ملك Thrace, Lysimaque وبعد أن اقتسم مقدونيا معه طرده هذا الأخير، فلجأ إلى شعبTarente بطلب منها حيث أنها كانت في حرب ضد روما الذي هزم الرومان بعد خسائر فادحة فجاءت عبارة انتصار على طريقة بيروس.

32- Ibid 134-135.

33- فانون، فرانز.معذبو الأرض. موفم للنشر.الجزائر.1990.ص 92-93.

34- Liazu, Claude.Op,Cit.p 134.

35 - Meynier, Gilbert.Op,cit, p 398.

36- الأشرف، مصطفى.مرجع سابق.ص 21.

37- Harbi,Mohammed.1954.la guerre commence en Algerie. Op,Cit.p 168.

38- Harbi, Mohamed.une vie debout.mémoire politique.Op.cit. p 377.

39- Azzedine.les Fallagas.ENAG édition.Alger.1997.p 306.

40- Liazu, Claude.Op,Cit.p 135.

41-Harbi , Mohammed.Le FLN.Mirage et réalité.NAQD-ENAL.Alger1993..p 11.

42- Meynier, Gilbert.Op,cit, p265.

43- Bouhara, Abderrezak.Op,Cit.p 173.

44- Harbi , Mohammed.Le FLN.Mirage et réalité...NAQD-ENAL.Alger1993..P 312.

45- Harbi, Mohamed.une vie debout.mémoire politique.tome 01 .1945-1962.p397.

46-تاريخ ابن خلدون.الجزء الأول.-http://www.al-eman.com/IslamLib/viewchp.asp ?BID=163&CID=5

47- Harbi , Mohammed.Le FLN.Mirage et réalité...NAQD-ENAL.Alger1993.. P 312.

48-Harbi. sur les processus de relégitimation du pouvoir en algerie.IN. La guerre d'Algerie.1954-2004.Tome 1:Institutions-Acteurs.p 137.

49- Harbi , Mohammed.Le FLN.Mirage et réalité...NAQD-ENAL.Alger1993..p 358.

50- Harbi,Mohammed.1954.la guerre commence en Algerie. Op,Cit.p 173.

51- Harbi, Mohamed.une vie debout.Op,Cit.p329.

52- Stora, Benjamin.les sources du nationalisme Algérien. Op.citP 24.

53- Harbi, Mohamed.une vie debout. Op,Cit.p329.

54-آيت أحمد، حسين. حسين.روح الاستقلال.ترجمة سعيد جعفر.منشورات البرزخ.الجزائر.2002.ص 196.

55- Bouhara, Abderrezak.Op.cit.p 377.

المراجع باللغة العربية

- الهواري،عدي.الاستعمار في الجزائر. سياسة التفكيك الاقتصادي و الاجتماعي.1830-1960. ترجمة جوزيف عبد الله .دار الحداثة.الطبعة الاولى.1983.
- زوزو، عبد الحميد.محطات في تاريخ الجزائر.دراشات في الحركة الوطنية و الثورة التحريرية (على ضوء وثائق جديدة).دار هومة للطباعة و النشر و التزيع.الجزائر.2004.
- حربي، محمد.حياة صمود و تحد.1945-1962.ترجمة عبد العزيز بوباكير و علي قساسية.دار القصبة للنشر.الجزائر.2004.
- الأشرف، مصطفى. مصطفى.الجزائر:الأمة و المجتمع.ترجمة حنفي بن عيسى.المؤسسة للكتاب.الجزائر.1983.
- فانون، فرانز.معذبو الأرض. موفم للنشر.الجزائر.1990.
- آيت أحمد، حسين. حسين.روح الاستقلال.ترجمة سعيد جعفر.منشورات البرزخ.الجزائر.2002
- الكنز، علي.جابي، عبد الناصر.الجزائر في البحث عن كتلة اجتماعية جديدة.مجلة المستقبل العربي.عدد 18. ماي 1994.يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية.بيروت.

دورية

على الانترنت

-تاريخ ابن خلدون.الجزء الأول.
http://www.al-eman.com/IslamLib/viewchp.asp ?BID=163&CID=5

المراجع باللغة الفرنسية

- Abbas. ferhat.Autopsie d'une guerre. Edition Garnier freres.Paris.1980.
- Ageron, Charles-Robert. Genèse de l'Algérie Algérienne.ed.Bouchene.Paris.2005
- Azzedine.les Fallagas.ENAG édition.Alger.1997
- Bouhara, Abderrezak. Les Viviers de la libération (Essai) - Casbah Éditions, Alger, 2002.
- Djabari, Youcef. la France en Algérie.Bilans et controverses.Volume 3.les limites d'un capitalisme d'état colonial.OPU.Alger.1994
- Harbi , Mohammed.Le FLN.Mirage et réalité...NAQD-ENAL.Alger1993
- Harbi, Mohamed. aux origines du fln.le populisme révolutionnaire en Algerie.ed Christian Bourgeois.Paris.1975
- Harbi, Mohamed.une vie debout.mémoire politique.tome 01 .1945-1962.Casbah éditions. Alger.2001
- Harbi, Mohammed.Meynier,Gilbert.le FLN.documents et histiore.1954-1962.Casbah éditions.Alger.2004
- Harbi, Mohammed.1954.la guerre commence en Algerie. 3ème edition.Complexe éditions.3ème edition.Paris.1998.
- Harbi. sur les processus de relégitimation du pouvoir en algerie.IN. La guerre d'Algerie.1954-2004.Tome 1:Institutions-Acteurs.
- Lacoture, Jean.Algerie.la guerre est finie.ed.Complexe.Paris.1995.
- Liazu, Claude les mouvements..In Enjeux urbain au Maghreb. Crises, pouvoir et mouvements sociaux.l'Harmattan.1985.
- Meynier, Gilbert.Histoire intérieur du FLN 1954-1962.édition Fayard. Paris. 2002
- Noushi, André. l'Algérie amer.1914-1994. éditions de la maison des sciences de l'homme.2ém édition.Paris.1995.
- Stora, Benjamin.les sources du nationalisme Algérien. Parcours ideologiques.origines des acteurs. Edition l'harmattan.1989
- Vatin, Jean-Claude. l'Algérie politique. Histoire et société. Presses de la fondation nationale des sciences politiques. Paris.2ém édition.1983